ساعة الفزع والرعب، ويبصرنا بالشدائد التي عانوها. كما صحبنا إلى صيد الأسود والنمور والحجل والدراج، ووصف لنا تربية الصقور والجوارح، كما وصف لنا تربية الخيول العربية الأصيلة في اصطبلات أبيه وأعمامه وأعطانا صورة رائعة عن المجتمع العربي والإسلامي في تلك العصور، كما وصف لنا حياة العامة والخاصة، وحياة الأفراد والجماعات في حالتي السلم والحرب، ووصف لنا سرعة نجدتهم ومشاركتهم في القتال أو اعتزالهم إياه، واعتكافهم على تلاوة القرآن الكريم ودراسة الحديث الشريف واشتغالهم بالأدب أو الفلاحة أو تربية الحيوان.

كما وصف لنا مرضاهم وأساليب مداواتهم. ولم يكتف بذلك. بل انبرى للفرنج وأعطانا صورة واضحة عنهم وعن عاداتهم، وصور لنا تأخرهم ووحشيتهم وجهلهم وإيمانهم بالخرافات وتأخر الطب عندهم وذكر قلة حيائهم واستهانتهم بشرفهم وأعراضهم، كما أورد بعض الطرائف المضحكة عنهم، وكان في الحقيقة منصفاً في كل ما وصف فقد أعطى القوم حقهم من الشجاعة والإقدام ودقة المواعيد وما إلى ذلك مما يتخلق به الفرنجة.

ولكل هذا جاء كتابه فريداً من نوعه وقد كتبه (أسامة) باللغة (الدارجة) أو الدارجة الميسرة ليسهل فهمه على الناس من بعده.

والكتاب مطبوع أكثر من مرة، وقد أعده للطبع وقدم له العلامة الدكتور (فيليب حتي) وأخرجه لمحبي (أسامة) وعشاق التاريخ منذ عهد قريب.

والكتاب في الحقيقة لم يصلنا كاملاً، فقد وقع الخرم في أوله وأكل بعض صفحاته إلا أن ما وصل منه فيه الكفاية لإعطاء صورة واضحة عن ذلك العصر.

وباختصار، فالكتاب ليس سيرة ذاتية لأسامة، بل هو سيرة ذاتية لمدينة (شيزر) -بما فيها أسامة وأهل أسامة وعشيرة أسامة.

فقد أحسن (أسامة) كل الإحسان في كتابه بالدعاية لنفسه ولأسرته ورسم صورة مشرقة أيما إشراق وأنصفها كل الإنصاف.

وكان كريماً متسامحاً، فلم يقابل الإساءة إلا بالإحسان ولعل النكبة الكبيرة التي تعرض لها (آل منقذ) وجعلتهم يدفنون أحياء تحت أنقاض قصر أمارتهم وهم يحتفلون بختان أمير صغير، أثر زلزال مدمر، جعل (أسامة) مشفقاً عليهم حزيناً على فقدهم فمحا كل ذلك ما ترسب في نفسه من بغضاء.